السجين

حسام الخطيب / مصر

حين أقتادوه في النهاية الي السجن ظن أنه سوف يستريح أخيرا ، أياما طويلة مضت بين إرهاق أقبية التحقيق وعذابات غرف التعذيب ، ولكنه لم يدرك أن السجن هو عذاب من نوع أخر ، لم يضعوه مع زملائه من السجناء وكأنه مصاب بمرض معدي و لم لا وهو سجين رأي ، صاحب كلمة وفكرة وقضية، والرأي عدوي تنتشر مثل النار في الهشيم لربما خشوا أن يصل بأفكاره للآخرين

وضعوه في زنزانة انفرادية مظلمة طولها كعرضها ليس أكثر من مترين وربما إرتفاعها كذلك ، هناك بصيص ضوء يأتي من بين فرجات شراعة الباب ومن نافذة أخرى أصغر حجما في الجدار ، لا يتنسم أي هواء متجدد وذلك يدل على كون نافذة الحائط لا ترى سوى جدار آخر، لا يوجد فراش ينام عليه ، فتوسد يده اليمنى والتحف بيده اليسري

متمثلا بالمسيح وكأنه ملكا في زمانه ، ما لم يدركه سوى بعد ساعات من استيقاظه أن السجن الانفرادي ليس كالسجن مع آخرين، نعم هو قد نجى من مخاوف الاحتكاك والشجار مع السجناء الجنائيين لكن ثواني وسنين السجن الأنفرادي أطول من ذاتها في السجن الجماعي.

شعر بالملل يتسرب إليه سريعا، لا يوجد كتاب ليقرأه ولا صوت ليسمعه ولا أحد يخاطبه، كم يفتقد بذاءات وإهانات الحراس الآن، لا توجد حتي ساعة بيده ليعرف الوقت

غير وضعية نومه، جلس القرفصاء، تأمل، فكر ، استرجع كل ذكريات حياته منذ طفولته، ابتسم ثم بكي ثم قهقه حتي استلقي علي ظهره، كل هذا ولم يمض سوى ساعة واحدة منذ حبسوه في المكان، تساءل في قرارة نفسه كيف صبر النبي يونس علي الوحدة داخل بطن الحوت، تعجب من نفسه وهو يقارن نفسه بنبي الله يونس، وزجر نفسه قبل أن يقارن نفسه بيوسف الصديق أيضا فهو الآخر كان سجينا

مرت اللحظات قاتلة مملة، من قال الوقت كالسيف لم يفصح عن المعني الخفي لكلماته، الوقت فعلا سيف بطيء الذبح لسريعي الملل، كان يمل في حياته قبل السجن حتي لو تواجد في أسعد الأوقات ومع أمتع الأصدقاء، فكيف به الآن لسوف يموت من الملل قبل غروب شمس اليوم.

ود لو أعادوه الي التحقيق مره أخري لربما استمتع به ، لكن هيهات ، مرت اللحظات ثقيلة، أحس أنه شاخ، يود لو وجد مرآة لربما تفحص شعر رأسه إن كان قد شاب أم لا.

شـعر بالباب بعد مدة طويلة يفتح والسـجان يدخل ليضـع طبقا من الطعام الرديء أمامه، ويغلق الباب من جديد ، بضع لحظات رأى فيها إنسان اخر حتي ولو كان سجانه أشعرته

بالراحة ولكن جعلته ينتبه لحقيقة ان الدهر الذي ظن انه قد قضــاه لم يكن سـوى نصـف يوم لا أكثر من العزلة ، تناول بعض الطعام وهو يستدعي ذكريات لتبدد ملل وحدته.

وجد قطعة صخر حادة مدببة في ركن الزنزانة، أمسكها وأخذ يخط خطوطا غير ذات معنى على الحائط، زفر وتنهد، أرغى وأزبد ثم صرخ وانكتم ونام في مكانه.

كان يسمع أن بعض السجناء يعاني من السجن الجماعي فيفتعل مشاكل حتي يعاقبوه فيحولوه الي السجن الانفرادي، فما المشكلة التي يجب ان يفعلها هنا حتي يعاقب

بالخروج إلى السجن الجماعي.

في اليوم التالي كان يحاول أن يبدو أكثر تماسكا ، تذكر كل من قرأ عنهم من العظماء وكيف مروا بعناء السجن وانتصروا علي قهره النفسي والجسدي وحاول أن يتمثل بهم، ولكن من قال أنه عظيم، ما هو إلا ناسخا لأفعال وأقوال الآخرين، محاكاة العظماء لا تعني أنك عظيم.

في اليوم الثالث ترجي السـجان أن يعطيه ورقة وقلما، في الكتابة والرسـم ما يسـري عنه ويزجي الوقت الثقيل ولكن السـجان تلذذ وهو يلوك كلمة لا في وجهه، فعاد يجتر ذكرياته والغريب أن معظمها ذكريات من صباه، حيث كنت تعلم أن هناك أب وأم يحميك وحينما كانوا يعلمونك أن تشتكي لحضرة الضابط في حال وجود مشكلة، قبل أن تنتبه حينما كبرت أن الشكوى للضابط مشكلة في حد ذاتها.

كل ليلة ويوم علي هذه الحال ، ذكريات تأتي وتروح ، هذيان من كلام وفعل، ورســـومات كثيرة علي الأرض والجدران

كان يبتسـم لسـجانه عسـي أن يبادله كلمات قليلة ليشـعر فيها أن بإمكانه القدرة علي الكلام ولكن السـجان كان صامت كحجر جبل أصم.

في الليلة العاشرة رسم ظلا كبيرا لأمه علي الأرض ونام علي صدرها، ود لو حبسوه في رحم أمه، فهذ المكان الوحيد الذي لن يشعر فيه بالوحدة.

في الليلة الثالثة والعشـرين رسـم زهورا وطيورا علي الجدار لعلها تبدد قتامة المشـهد ثم شـعر بالذنب أنه قد حبس الطيور والزهور معه في الزنزانة حتي لو كانت مجرد رسوم.

في الليلة السادسة والثلاثين محي صورة أمه من على الأرض ورسم أفاعي وعقارب في كل مكان من الغرفة.

في الليلة السابعة والخمسين رسم دائرة ليس بها شيء علي الجدار وأخذ يحدق بها طوال الوقت.

في الليلة الثامنة والسبعين رسم شاهد قبر على الأرض وكتب على الشاهد (أنا).

في الليلة التاسعة بعد المائة لم يرسم شيئا ، وتوقف عن الصراخ والضحك والكلام ، كان سجانه يراقبه طوال الوقت فابتسم وقدم طلبا لآمر السجن أن يخرجه إلي المصحة النفسية فالرجل لم يعد ذو خطر الآن.

اقتادوه إلى مستشفي الأمراض العقلية ووضعوه في عنبر المكتئبين ، لم يحرك ساكنا ، شعر أنه يتعافى بعد أيام ولكنه لم يظهر ذلك خشية أن يعيدوه مرة أخرى إلى زنزانته

الإنفرادية وقرر أنه سيبقى هنا الي الأبد.